السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٢١)

وَكَانَ عَامُ الحُزْنِ!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

« خَلُّوا عَنْ عَمِّي »

تَعَالَوْا أَيُّها الأَحِبَّةُ البَراعِمُ لِنَرىٰ سَوِيَّةً مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُوْلِ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ شِعْبِ أَبي طَالِبٍ .

لَقَدْ مَرِضَ عَمُّ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ الله وَسلامُه عَلَيْهِ أَبُو طالبٍ ، وَكما هُوَ مَعْرُوفٌ لِلْجَمِيْعِ فَإِنَّ عَمَّ الرَّسُولِ آزَرَهُ ، وَنَصَرَهُ ، وَوَقَفَ إِلىٰ جَانِبِهِ ، وَقَدْ قَدَّمَ في سَبِيْلِ ذَلِكَ الكَثِيْرَ .

ولا نَنْسىٰ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي رَعَاهُ ، وَكَفِلَهُ ، وَذَلِكَ بَعْدَ وَفَاةِ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ .

وَلِذَلِكَ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ ـ وَهُوَ قِمَّةُ الوَفَاءِ ـ حَرِيْصاً علىٰ هِدَايَةِ عمِّهِ .

تَرْوِي كُتُبُ السِّيرَةِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ علىٰ عَمِّه أَبي طَالِبٍ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَكَانَ عِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ ، وَعَبْدُ الله بْنُ أَبي أُمَيَّةَ .

فَقَالَ : « أَيْ عَمِّ ، قُلْ لا إِلـٰهَ إلا الله ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ » .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ ، وَعَبْدُ الله بنُ أَبي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّة عَبْدِ المُطَّلِبِ ؟!

فَلَمْ يَزَالا يُكَلِّمَانِهِ ، حَتَّىٰ قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ : عَلَىٰ مِلَّة عَبْدِ المُطَّلِبِ!!

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ » .

فَنَزَلَتْ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1] .

ونزلت : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[2] .

* * *

(١) سورة التوبة : ١١٣ .

(٢) سورة القصص : ٥٦ .

... وَمَاتَ النَّصِيْرُ!!

وَهَكَذَا يَا أَحِبَّتِي فَقَدِ اشْتَدَّ المَرَضُ عَلَىٰ أَبِي طَالِبٍ ، فَحَزِنَ رَسُولُ الله ﷺ ، وَذَلِكَ لأَنَّهُ شَعَرَ بِأَنَّه سَيَفْقِدُ النَّصِيْرَ وَالمُؤَازِرَ ، وَحَزِنَ أَهْلُ مَكَّةَ أَيْضَاً ، وَذَلِكَ لِمَا كَانَ لأَبِي طَالِبٍ مِنْ مَكَانَةٍ مَرْمُوْقَةٍ بَيْنَ زُعَمَاءِ الْعَرَبِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ اقْتَرَحَ أَبُو جَهْلٍ عَلَىٰ زُعَمَاءِ مَكَّةَ أَنْ يُرْسِلُوا وَفْداً إلى أَبي طَالِبٍ ، وَذَلِكَ بِهَدَفِ حَلِّ مُشْكِلَةِ ابْنِ أَخِيْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ! وَبِالْفِعْلِ شَكَّلُوا وَفْداً ، وَانْطَلَقُوا إلى أبي طَالِبٍ ، وَهُنَاكَ

عَرَضُوا عَلَيْهِ بَعْض الأُمُورِ .

وفي المَسَاءِ جَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ لِيَزُوْرَ عَمَّهُ ، وَلَمَّا جَلَسَ إِلَى جِوَارِهِ ، وَاطْمَأَنَّ عَنْ صِحَّتِهِ ، قَالَ أَبُو طَالِبٍ : يَا بْنَ أَخِي ، لَقَدْ أَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ وَفْداً إليَّ ، وَكَلَّمُونِي في أَمْرِ الدَّعْوَةِ الَّتي جِئْتَ بِهَا ، وَطَلَبُوا مِنّي أَنْ تَدَعَ آلِهَتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ...!!

وَلَمَّا أَنْهىٰ كَلامَهُ ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : « يَا عَمِّ جُزِيْتَ خَيْرَاً ، كَفِلْتَنِي صَغِيْرَاً ، وَحَضَنْتَنِي كَبِيْرَاً ، فَجُزِيْتَ عنِّي خَيْرَاً! يَا عَمَّاه! أَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، أَشْفَعُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

فَدَمِعَتْ عَيْنَا أَبِي طَالِبٍ ، وَنَظَرَ إلى ابْنِ

أَخِيْهِ نَظْرَةَ مُوَدِّعٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَا هِيَ تِلْكَ الكَلِمَةُ يَا بْنَ أَخِي ؟!

قَال : « قُلْ لا إِلَـهَ إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ » .

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنَّكَ لِيْ لَنَاصِحٌ ، وَوَاللهِ! لَوْلا تُعَيَّر بِهَا بَعْدِيْ ، فَيُقَالُ : جَزِعَ عَمُّكَ عِنْدَ المَوْتِ ، لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ ، لِذَلِكَ فَإِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَمُوْتَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ!!

وَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ ابْنَهُ عليًّا أَنْ يُغَسِّلَهُ ، وَيَدْفِنَهُ .

وَأَخْـرَجَ البُخَـارِيُّ فـي صَحِيْحِـهِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَر عَمَّهُ ، فَقَالَ : « لعلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَـاعَتِـي يَـوْمَ القِيَـامَـةِ ، فَيُجْعَـلُ فـي

ضَحْضَاحٍ[1] مِنَ النَّارِ ، يبْلُغُ كَعْبَيْهِ ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ » .

* * *

(١) أي : يوضع في نار قليلةٍ خفيفة .

مُصِيْبَةٌ... ثُمَّ مُصِيْبَةٌ!!

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ بِبُطءٍ شَدِيْدٍ ، فَالحُزْنُ قَدْ خَيَّمَ عَلَىٰ مَكَّةَ ، وَذَلِكَ لأَنَّها فَقَدَتْ أَحَدَ زُعَمَائِها .

لَـٰكِنَّ الَّذي كَانَ يُخَفِّفُ شِدَّةَ المُصِيْبَةِ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ هُوَ زَوْجَتُهُ السَّيِّدَةُ خَدِيْجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

وَلَمْ تَمْضِ إلا أَيَّامٌ مَعْدُوْدَةٌ ؛ حَتَّى اشْتَكَتْ خَدِيْجَةُ مِنْ أَلَمٍ شَدِيْدٍ ، إلىٰ دَرَجَةِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ أَدْنىٰ شَكٍّ في اقْتِرَابِ وَفَاتِهَا .

وَرَاحَ الرَّسُولُ صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ يَتَذَكَّرُ الأَيَّامَ الْجَمِيْلَةَ الَّتي عَاشَهَا مَعَها ، وَكَيْفَ وَقَفَتْ معَهُ كَخَيْرِ مَا يَكُوْنُ الأَنِيْسُ والنَّصِيْرُ... ، فَقَدْ أَعْطَتْهُ مَا يُرِيْدُ مِنْ مَالِهَا ، وَرَزَقَهُ اللهُ مِنْها الأَوْلادَ... ، وَبُشِّرَتْ بِالْجَنَّةِ .

حتَّى إِنَّهُ صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ كَانَ يَبْحَثُ عَنِ الوَسَائِلِ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ رَدِّ الجَمِيْلِ لَهَا ، كَيْفَ لا ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّم النَّاسَ الوَفَاءَ ، وَرَدَّ الجَمِيْلِ ، كَمَا في قَوْلِهِ : « مَنْ أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ ، وَإِلا فَادْعُوا لَهُ » .

وَهَبَطَ الأَمِيْنُ جِبْرِيْلُ عَلَىٰ الرَّسُوْلِ ﷺ يُبَشِّرُهُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَتَانِي جِبْرِيْلُ فَقَالَ لِيْ : « يَا رَسُولَ الله! هَـٰذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ

أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيْهِ إِدامٌ ، أَوْ طَعَامٌ ، أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ ؛ فَاقْرَأْ عَلَيْها السَّلامَ مِنْ رَبِّها ، وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ في الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ[1] ، لا صَخَبَ فِيْهِ ، وَلا نَصَبَ » .

فَلَمَّا أَخْبَرَها رَسُولُ اللهِ بِذَلِكَ ؛ قَالَتْ : هُوَ اللهُ السَّلامُ ، وَمِنْهُ السَّلامُ ، وَعَلىٰ جِبْرِيْلَ السَّلامُ .

* * *

(١) أي : من لؤلؤٍ مجوَّفٍ .

وَكَانَ عَامُ الحُزْنِ!!

وَهَـٰكَذَا يَا أَحِبَّتِي البَرَاعِمَ اشْتَدَّ المَرَضُ عَلَىٰ السَّيِّدَةِ خَدِيْجَةَ ، وَاشْتَدَّ حُزْنُ الرَّسول ﷺ ؛ إِذْ لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ دَفْنِ عَمِّهِ إلا أَيَّامٌ قَلِيْلَةٌ ، فَهَلْ تَتَوالىٰ المَصَائِبُ عَلَيْهِ وَاحِدَةً تِلْوَ الأُخْرَىٰ ؟

بَيْنَمَا كَانَتْ أُمْنِيَاتُ السَّيِّدةِ خَدِيْجَةَ أَنْ تُدَافِعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ وَدَعْوَتِهِ حتَّىٰ آخِرَ لَحْظَةٍ... ، وَلَـٰكِنَّ للهِ سُنَنَاً ثَابِتَةً تَنْطَبِقُ عَلَىٰ الجَمِيْعِ .

وَمِنْهَا سُنَّةُ المَوْتِ ، فَحَتَّىٰ المَعْصُومُ ﷺ خَاطَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة الزمر : ٣٠ .

فَكَيْفَ بِالنَّاس الآخَرِيْن ؟!

وَفي لَيْلَةٍ قَمَرِيَّةٍ ، وَبَيْنَما كَانَ الرَّسُولُ ﷺ إلى جِوَارِ زَوْجَتِهِ خَدِيْجَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا يَتَذَاكَرَانِ أَرْوَعَ المَوَاقِفِ وَأَحْلاهَا ؛ إِذَا بِهَا تُسْلِمُ الرُّوْحَ إِلىٰ بَارِئِهَا .

وَلمَّا عَلِمَ المُسْلِمُونَ بِالخَبَرِ ، هُرِعُوا إلىٰ بَيْتِها ، فَجَهَّزَهَا النِّسْوَةُ ، وَحُمِلَتْ إلىٰ قَبْرِها ، حَيْثُ دُفِنَتْ في مِنْطَقةِ الحُجُوْنِ .

وَهُنَاكَ نَزَلَ الرَّسُولُ ﷺ في حُفْرَتِهَا ، وَالدُّمُوعُ تَسِيْلُ عَلَىٰ اللِّحْيَةِ الشَّرِيْفَةِ ، بَيْنَما

كَانَ أَحَدُ الصَّحابَةِ يُرَدِّدُ قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (١) .

وَأُطْلِقَ علىٰ ذَلِكَ العَام : عَامُ الحُزْنِ .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنِ

* * *

(١) سورة الفجر : ٢٧ـ٣٠ .